دراسات فى الفن :

الفن علامة الانسانية

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

قال جاجادیز بوز العالم الهندى إن النبات يتألم ويئن وأثبت ذلك . وأغلب الظن أن جاجادیز بوز لو لم يكن شرقياً لكثر عليه أن ينسب الألم والتعبير عنه بالأنين إلى النبات ، ولا كتفى بقوله إنه تبدو فيه اهتزازات واضطرابات تشبه انفعالات الألم عند الإنسان . فهذا هو نهج الغربيين من العلماء الذين يتصدون لدراسة الحياة : يؤثرون أن ينكروها أولاً ثم أن يبحثوا عنها ثانياً على خلاف ما يفعل الشرقيون الذين يشعرون بها أولاً ثم يتعرفونها ثانياً بادئين بأنفسهم غير منتهين إلى شيء ، لأنهم يؤمنون بالروح ويحبون بطبعهم أن ينسبوها إلى الأحياء جميعاً ولا يسمحون لأنفسهم أن يقولوا ماقاله بعض علماء الغرب من أن الحيوان نفسه مسلوب الروح وأن كل ما يبدو عليه من أمارات الوجدان والعاطفة ليس إلا ردود أفعال لاهتزازات عصبية مادية تعترى الحيوان فى ظروف خاصة وتبعاً لمؤثرات خاصة. وهم يذهبون فى تكرانهم هذا إلى أبعد الحدود حتى لينكرون هذا الفرح الذى يعترى الكلب فى استقبال صاحبه الغائب ، وهذا الحزن الذى يعتريه لوفاة صاحبه الوفى والذى يحمله على الإضراب عن الطعام والشراب حتى يموت موتاً . ينكرون العاطفة الروحية على الحيوان ويقولون إنه لا يفرح للقاء صاحبه وإنما هو يضطرب لأن مرأى صاحبه يثير فى نفسه أو فى أعصابه صور الطعام والنعم التى يغدقها عليه ، ثم يقفون أمام الكلب المنتحر من الحزن والأسى ، وقد طأطأوا رؤوسهم يفكرون فى هذه القوة التى نقّت الحيوان من أخص خصائص حيوانيته فأهمل الطعام والشراب والحياة نفسها . . . يخفضون الرؤوس أمام هذا الكلب طويلاً يبحثون فى أذهانهم عن علة صيامه ؛ فإذا قال لهم قائل إن الحزن والأسى هما السبب انتفضوا وقالوا : لا . نحن لا نعرف . ولكننا نأبى أن يكون فى الحيوان روح وحياة . أما بقية الناس فمنهم من لا يرون فى فرح الكلب وحزنه إلا اضطرابات واهتزازات وانفعالات وردود أفعال عصبية مادية لا روح فيها ولا حياة ، وهؤلاء يقبلون أن يصدقوا هؤلاء العلماء لأنهم مثلهم ، وأن يثبتوا معهم أمام الكلب ينكرون عليه فرحه وحزنه إلى أن يقول

وجاعلاً بين حنايا ... فؤاداً يخفق
بث القوى فيه دماً ... أحمر أو عظماً يثق

* * *

من عدم لعدم ... ومن عناء لرهق
ضج الثرى من رجم ... مشيد ومن نفق

* * *

سبحانه كم ألهم العقل ... جنوناً وحمق
يشك ما يحيا وإن ... أشفى على الموت فرق
وكم تعالى حميت ... عنه قلوب من خلق
سبحانه قد وضحت ... آثاره فينا ودق !

* * *

رمى بهذا الطفل فى الأر ... ض ومن ثم رزق
رمى به فى موكب الدن ... يا مثالاً للقلق
يدير عينيه ويستف ... سر عن سر الشفق
كأنه يصرخ : إن المو ... ت بالشمس علق !

التيجانى يوسف بشير

لهم بلغة من اللغات الأوربية : إني فرح وإني حزين . ومن الناس من يحسون ويشعرون ويبادلون الحياة الشهقات والزفرات وأولئك آمنوا من هدى أنفسهم أن في الحيوان روحاً وحياة ، وهم يسارعون إلى جاجديز بوز يصدقونه حين يقول : إن النبات يتألم وينفعل بوجدان ، ويئن وينطلق بتعبير . ويخرجون من هذا بأن الحيوان أولى من النبات به .

ورضي الله عن جاجديز بوز الذي استطاع أن يثبت رأيه إثباتاً علمياً استخدم فيه آلات المعامل وأحماضها وأملاحها فلم يعد هناك مجال لإنكار ما أثبت، بل لقد عد صنيعه هذا من كرامات البشرية الحديثة فمنحه الغرب جائزة نوبل التي يتعززبها على الشرقيين

أثبت الشرق إذن أن النبات يتألم وأنه يئن من الألم ، وقد يكون الألم علامة الروح الوحيدة في النبات وقد يكون معه غيرها ولكنه على أي حال يكفي للتدليل على الروح، فهو يستطيع أن يشملها وهو الذي ينزع بها إلى الخلاص ! وهو - أخيراً - حسبنا من علامات الروح في النبات

فإذا ارتفعنا من النبات إلى الحيوان في سلسلة التطور والارتقاء الحيويين رأينا الحيوان يمتاز على النبات في الظاهر بالحركة . ورأينا الحيوان في حركته واحداً من اثنين : إما خسيسا يتحرك في حياته حركات متشابهة متكررة لا تعديل فيها ولا تجديد ولا محاولة تدل على قدرة التلاؤم مع الحياة . وإما رفيعا يتحرك في حياته حركات مختلفة يطرأ عليها التعديل كلما تغيرت الأحوال ، ويطرأ عليها التجديد كلما استدعت الظروف التجديد ، وتتحور ويتزايد وضوح المحاولة التي تدل بها على قدرة التلاؤم مع الحياة

أما خسيس الحيوان فقد يسهل تصوره محروماً من العقل إذا اعتبرنا أن العقل هو القوة التي تمكن الكائن الحي من الملاءمة بين نفسه وبين ظروف الحياة الطارئة المتجددة . ولكن هذا إذا سهل علينا تصوره . فإنه يتعذر علينا (بعد الذي أثبته جاجديز بوز) أن نتصوره خالياً من القوة الروحية التي يثور بها في نفسه وجدان الألم على الأقل . فإذا كنا ممن يؤمنون بالتطور والارتقاء الروحيين إلى جانب التطور والارتقاء البدنيين ، فإننا من غير شك نتوقع أن يكون في أدنى الحيوان من علامات الروح شيء إلى جانب الألم ، لأنه قد ثبت أن النبات يتألم ، والحيوان مهما كان دنيئاً فهو أرقى حياة وروحاً من النبات ، إذ أنه كلما ارتقى الكائن الحي ارتقت روحه وزاد إحساسها وزادت قدرتها على التعبير عن نفسها

أما الرفيع من الحيوان الذي تتضح مقدرته على التلاؤم مع ظروف الحياة الطارئة المتجددة ، فهذا يصعب تصوره محروماً من العقل لأن فيه من مظاهر العقل .

صحيح أننا نرى في سلوك الحيوان ما يدل على الغباء أحياناً وما يدل على الغفلة وما يدل على الجهل ، ولكننا إذا تدبرنا هذه المواقف التي يظهر فيها غباء الحيوان وغفلته وجهله رأينا أكثرها مما تصطنعه ظروف غير طبيعية في الحياة . ولما كان الحيوان حيواناً وليس أستاذاً من أساتذة العلم الحديث فإنه المسكين يحار ويختبل أمام هذه الظروف الطارئة التي لم يسبق لأجداده الوقوع في مثلها وتجربتها ومعالجتها سبقاً متكرراً كان يمكن أن يهيئه للتغلب عليها ، وهو في هذا لا يزال يشبه أساتذة العلم الحديث حينما يقعون أمام المشكلات الحديثة المستغلقة ... أليسوا هم أنفسهم يحارون ويختبلون ؟ ألا يصدر عنهم من الأعمال ما يدل على الغباء والغفلة والجهل كما تصدر عن الحيوان أعمال تدل على هذي ؟ إنهم هكذا من غير شك وإن في الحيوان عقلاً ولو تضاءل أمام عقل الإنسان وتواضع فإنه موجود لا يمكن إنكاره

فإذا اعترفنا للحيوان الراقي بوجود العقل ، أو بوادر العقل فيه ، فإننا لا نملك إذن إلا أن نعترف له إلى جانب هذا بوجود الإحساس والعواطف فيه أيضاً ، وقد نستغني عند هذا الحيوان الراقي عن براهين جاجديزبوز إذا كنا ممن يرون ويشعرون ويحسون ويدركون الأشياء من غير أجهزة ومقاييس وموازين فإذا لم نكن من هؤلاء فقد دل جاجديزبوز العالم من الهند إن النبات يتألم ويئن ، وأثبت هذا إثباتاً يقنع عقل الغرب كما يرضي عقل الشرق ، وأصبح من المكابرة بعد هذا أن تنكر الأحاسيس والعواطف على الحيوان ، خصوصاً الحيوان الراقي الذي يسلك في حياته سلوكاً يشبه سلوك الإنسان فيبحث عن طعامه بحثاً منطقياً ، ويتقي عدوه اتقاء منطقياً ، ويبني مسكنه بهندسة منظمة بل إنه يمكر أحياناً ، ويتخابث ويحتال ، مما يدل دلالة قاطعة على أنه حي يقظ يحاول أن يلائم بين نفسه وبين ظروف الحياة الطارئة

فينجح أحياناً ، ويفشل أحياناً ، ولكنه لا يكف عن المحاولة ما دام حياً

فإذا تركنا حياة النبات والحيوان وقد تراءت لنا الروح فيها وعرجنا على حياة الإنسان رأيناها أنضج من حياتيهما فى نواحيها الثلاث : النبات يحس ويعبر عن إحساسه ، والحيوان يحس ويعقل ويعبر عن إحساسه وعقله ، والإنسان يحس ويعقل ويعبر عن إحساسه وعقله

فهل يزيد الإنسان على الحيوان فى شىء ... ؟

لا جاجاديزبوز ولا حتى أنا نرضى بهذا ! ولا يرضى به شرقى

قد كان من الممكن أن يقال هذا لو لم نقل إن الإنسان حلقة جديدة هى أرقى الحلقات فى سلسلة التطور والارتقاء فى الخلائق . وما دمنا قد قلنا هذا ، وما دمنا رأينا التطور والارتقاء الماديين يلزمهما تطور وارتقاء روحيان ، فلا بد أن يكون فى الإنسان ميزة روحية ترقى به على الحيوان إلى جانب رقيه البدنى المادى .

فما هى هذه الميزة الروحية ؟

لنعد مرة أخرى إلى النبات والحيوان نتتبع فيهما منطق التطور والارتقاء لنهتدى به فيما نريد أن نعرفه من علامة الإنسانية التى لو فقدها الإنسان لم يكون غير حيوان ، وإن نطق ! فليس النطق على أشرف صورتيه إلا محاولة عقلية ... أما الصورة الأخرى فهى التى نعرفها من البيغاء التى أنطقها الله لأمر ما ، والتى لعله سبحانه أراد حين أنطقها أن يدرك المبتصرون شيئاً من تشابه الخلائق ، وبريقاً من التوحد يسطع منها جميعاً ، وإن تفاعلت وتبدلت وتطورت وارتقت ...

النبات يرتقى حتى ليشابه الحيوان فى حلقة الإسفنج ، والحيوان يرتقى حتى ليشابه الإنسان فى القرد أو ما هو أرقى خلقاً من القرد وهو الحلقة المفقودة التى ذكرها العلماء . وقد رأينا الإحساس يبدأ فى الحياة أولاً ومعه تعبير ضامت عنه ، ثم نرى العقل ينشأ فى الحيوانات المحتالة ومعه تعبير غامض عنه لم يثبت بعد للعلم ، ولكننا قبل أن نترك حلقة الحيوان إلى حلقة الإنسان نرى الحيوان يعبر عن إحساسه تعبيراً فيه تدليل على ذاته ، وهو أشبه التعبير بالغناء البشرى . فإذا تركنا حلقة الحيوان ومضينا إلى ما بعدها فى سلسلة التطور والارتقاء وهى حلقة الإنسان رأينا هذا التعبير الذى يحاوله الحيوان فى انحصار يتضح عند الإنسان وينفرج حتى ليسخر له الإنسان الأرقى حواسه جميعاً يجمع أصوله بها ويطلقه فيها ، ثم يصدره معبراً عن ذاته كما يفعل البلبل والكروان ولكن فى صور أكثر من صورهما ، ثم معبراً بعد ذلك عن غيره ، وهو مالا يفعله أحد من الحيوان ، لا البلبل ولا الكروان .

ونحن إذا حاولنا أن نجد شيئاً ظاهراً يميز الإنسان مما عداه من المخلوقات فى هذه الظاهرة لم نجد شيئاً . ذلك أنه إذا حسبنا النطق يميز الإنسان فالببغاء ناطقة ، وإذا حسبنا الحياة الاجتماعية تميز الإنسان فالذئب والقرد والوعل حيوانات اجتماعية ، وإذا حسبنا الإحساس يميز الإنسان فقد رأينا الحيوان بل والنبات يحسان ، وإذا حسبنا العقل فالحيوان يعقل وإن أنكر العلماء ، وهكذا فإننا نعجز فى التفريق بين الحيوان والإنسان إلا باثنتين ! هذه الظاهرة التى سجلناها ، وظاهرة أخرى هى الدين . . على أنه يمكن بسهولة تامة أن نتصور النبات والحيوان والجماد معهما متدينين جميعاً إذا اعتبرنا أن الدين هو الإسلام وهو نهج النظم الطبيعية التى تؤدى إلى السلامة ، وإذا لحظنا أن الأديان لم تلزم الإنسان إلا بعد أن انحرف عن نهج النظم الطبيعية التى كان يجب عليه أن ينهجها لتسلم حياته من الأضرار وأمراض البدن والروح ، لم يبق أمامنا من شىء يميز الإنسان على سائر الكائنات غير هذه الظاهرة التى ذكرناها

فما هى هذه الظاهرة ؟

إنها الفن !

وهذه الظاهرة تسلك حين تسرى فى الإنسانية مسلك كل ظاهرة من ظواهر التطور والارتقاء . وقد رأينا ظواهر التطور والارتقاء تبدأ فى الدنىء من الخلائق على صورة يسيرة غامضة ، ثم تزدهر وتتضح وتتضح حتى تتميز تميزاً تاماً واضحاً ملموساً فيكون هذا التميز طابعاً لهذا الفريق من الخلائق ويكون هذا الفريق أنضجها وأرقاها فى هذه الناحية

وكذلك الفن . نواته موجودة فى البشر جميعاً لأنهم الحلقة الحيوية التى اختصتها الطبيعة به وهيأتها له . والدليل على ذلك أن الناس جميعاً يستجيبون للفن أو هم على الأقل يطربون للموسيقى . وما كانوا يملكون إلا هذا ما دام فى الحيوان ما يغنى كالكروان

والبلبل ، وما دام فيه ما يستجيب للصفير « وهو ضرب من الموسيقى » كالثعبان . وليس غناء الكروان والبلبل واستجابة الثعبان وطربه للصفير إلا بشيراً بالفن أو بأنغامه على الأقل بشرت به الحياة الخلائق فى الحيوان ، وحققته تحقيقاً تاماً فى الإنسان ؛ غير أن الناس ليسوا سواء فى تكوينهم الفنى ، وليس فى هذا عجب لأن الناس ليسوا سواء فى شىء من الأشياء ، ولأن طبيعة الحياة أن تتشابه فى العموميات ، وأن تختلف فى التفصيلات ليثبت لذوى الأبصار أن هذه الخلائق لا تصنع فى مصنع فيه آلات وفيه قوالب وإنما تخرجها إرادة فنان يأبى أن يتكرر حين يتوحد سبحانه من فنان !

فإذا راق لنا أن نؤمن بهذا وأن نعتبر الفن علامة الإنسانية التى تسمو بها على الحيوانية والتى لا يمكن الإنسان أن يكون إنساناً إلا إذا اتصف بها ... إذا آمنا بهذا لزم أن يكون أقرب الناس من الفن أنضجهم إنسانية . ولزم أيضاً أن نتوقع لهذه العلامة الإنسانية أن يتزايد وضوحها وتمكنها حتى تشمل البشر جميعاً ، وعندئذ تبتدئ بشائر الميزة الجديدة التى يريد الله أن يطبع بها الحلقة المقبلة من حلقات التطور فى الخلائق . . ومن يدرى أى شىء سيكون هذا الطابع ، وأى ميزة ستكون هذه الميزة ؟! لعلها ميزة العقل الذى يطالبنا به الله لا عقل العلم الحديث

فإذا كان الأمر كذلك كان ما يسعد الفن هو ما يسعد البشرية ، وكانت كل محاولة يراد بها التقليل من شأن الفن محاولة مجرمة تعرقل التطور البشرى

فهل تنهج الإنسانية فى حياتها الحالية نهجاً فنياً يسعدها ويرقى بها ؟ أو هى قد انحرفت عن طريق الفن إلى طريق آخر لا يمكن إلا أن يقيد بها مهما كان صالحاً ومهما كان فيه خير لنواح بشرية غير ناحية الحس الروحى ؟

إن الإنسانية قد انحرفت إلى هذه الطريق منذ أمنت بالحضارة والعلم اللذين يحتضنان المادة

وإنه من الخير لها أن تفيق وأن تعود إلى حياة الحس الروحى فينتعش فيها الفن وتنتعش فيها الروح وترق ، وهذه سنة الله لو أردنا أن نتبع سنته

عزيز أحمد فهمى

كتاب الدين والعقل
أو برهان القرآن

تأليف الأستاذ أحمد حافظ هداية

هو فى استنباط براهين عقائد الإسلام من القرآن الكريم على وجه الحصر والاستيعاب مثبتة بأحدث النظريات العلمية . يحتوى على مقدمة وسبعة أجزاء هى : (البرهان القاطع فى وجود الصانع) ، (الرسالة وبعثة الأنبياء عليهم السلام) ، (البعث والمعاد) ، (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، (القرآن كلام الله) ، (إن الدين عند الله الإسلام) ، (ميزان الأديان) . وهو فى أربعمائة فصل مصدرة بدلائلها فى القرآن على أسلوب جديد لعلم الكلام وقد اطلع عليه كثير من كبار العلماء فشهدوا بأنه وحيد فى بابه لم ينسج على منواله كتاب من قبل

وحسبنا أن نقتطف منها هذه الكلمات :

« ... قرأت المؤلف النفيس المسمى (الدين والعقل أو برهان القرآن) فألفيته مؤلفا نفيسا قائما وأسأل الله أن ينفع به الحاق أجمعين »
الاحمدى الظواهرى شيخ الأزهر السابق

« ... كتاب جمع بين المعقول والمنقول وألم بطريقة المتقدمين والمتأخرين فما أجدره بان يسمى (الدين والعقل) فقد أبان أنهما متآخيان ، ولسعادة الدارين داعيان »
يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء

« ... وجدته من خير ما يخرجه عالم فى هذا العصر فى أسلوبه وموضوعه وبحوثه »
محمد زاهد الكوثرى
وكيل المشيخة الاسلامية بدار الخلافة سابقا

« ... يفتتح الجزء بأدلة من القرآن العظيم ثم يفيض فى الموضوع الذى هو بصدده مستدلا بأقوال أساطين العلم من المسلمين والأوربيين مطبقا آيات القرآن على أحدث نظريات العلوم . وبذلك قد سد هذا الكتاب النفيس فراغا فى الناحية العلمية الدينية كان يجب أن يسد قبل اليوم بقرون »
عبد الوهاب النجار

« ... وجدتك فى هذا الكتاب تنحو نحو آيات القرآن فى إثبات العقائد الدينية وتصول فى بحثك على ما ظهر من الكشف العلمى الطبيعى والروحى فى الآفاق والأنفس وهى الطريقة المثلى التى يجب على الباحثين اتباعها فى زماننا هذا وما بعده »
طنطاوى جوهرى

« ... جاء هذا التأليف جامعا للأدلة العقلية على صحة الشريعة المحمدية جمعا وفق فيه المؤلف إلى الغاية ، وعزز كل دليل بآية »
شكيب أرسلان

جلى فيه سمو الأصول الاسلامية وتعاليم الكتاب الكريم ودلل على أنها الغاية التى ليس وراءها مطمح فكان فيما كتب موفقا كل التوفيق
محمد فريد وجدى

والكتاب فى ثلاثة مجلدات يطبع الآن بمطبعة الرسالة أحسن طبع وعلى أجود ورق . وقيمة الاشتراك فى المجلد الواحد قبل الطبع ١٠ قروش صاغ وفى المجلدات الثلاثة ٢٥ قرشا . ويكون الثمن بعد الطبع ١٥ قرشا عن المجلد و ٤٠ قرشا عن الكتاب كله . والاشتراكات ترسل باسم مجلة الرسالة بشارع المبدول رقم ٣٤ — عابدين القاهرة